

عيد ميلاد شمعة واحدة... ومطر من الصواريخ

أحمد يعقوب

ليندا، ابنتي طيلة شهر كامل، وهي تفكر بعيد ميلادها، وتتخيله. وتقدم لي كل يوم خطة تعدلها في اليوم التالي. ليندا أرادت أن تقيم حفلة كبيرة، أرادت أن تدعو تلميذات وتلاميذ صفها كله والجيران وأصدقاءها وصديقاتها الذين يشتركون معها في تدريبات الموسيقى والجمباز. أرادت ان اشترى الهدايا لكل المشاركين في الحفلة، كتقدير لطيف لمشاركتهم، ولأنها سوف تتلقي الهدايا منهم. ليندا ارادت شراء ١٠٠ بالون من جميع الألوان والأحجام، وأن اقوم انا بنفخهم... وكانت ترغب في شراء فستان جديد موضة الفلامنكو، وأن تصفف شعرها على الطريقة الفرنسية غارسون (garçon). وبالطبع أرادت كعكة مع صورة لها فوقها مصنوعة من الكريم وبنكهة الكراميل. أرادت عدة أنواع من العصير. وموسيقى لشاكيرا والفلامنكو. وارادت وارادت وارادت..

ولأني كسول وأؤجل الاشياء الى النهاية، قلت لنفسي: " سأحضر لها ما أقدر عليه من طلباتها في يوم واحد قبل تاريخ عيد ميلادها". ولكن فجأة، انفجرت الصواريخ في سماء غزة، وصنعت في الارض زلازل وبراكين.

طائرات ال F١٦ مع طائرات ال Dron، بدون طيار، في ذهاب واياب ترمي وابلا من الصواريخ.، وكذلك أطلقت حماس الصواريخ. وبدأت الأجواء تفضي الى كارثة.

. نحن في غزة نعاني من نقص الكهرباء لسنوات، ولكن الان مع عدم وجود الإنارة فإن المناخ الحربي يخلق صورة شبكية للمدينة. غياب الكهرباء، يعني عدم وجود الماء، ويعني أنك سوف تستخدم

الادراج نحو الطابق الحادي عشر حيث أعيش مع عائلتي قريبا من شاطئ البحر شمال مدينة غزة. عدم وجود الكهرباء هو غياب الحياة، والآن، مع التفجيرات، هو تدمير حياة الكثيرين. كانت ليندا حزينة جدا، وتبكي لمجرد أنها خسرت حفلة عيد ميلادها، وتسالني "ماذا أقول لصديقاتي وأصدقائي؟" وتبكي أيضا الهدايا المفقودة. وعدتها أن نفعل ذلك عندما تنتهي هذه الكارثة، وسوف نفعلها تماما كما أرادت. ولكنني قلت لنفسي. "إن نجونا".

غالبا ما يؤسفني أنني تزوجت وأنجبت أطفالا.. و أتساءل "ما ذنب هذه المخلوقات؟" لكنني اعود وأقول. "الشعوب التي تحت الاستعمار، ألا يجب أن يكون لها أطفال؟".

الضحايا الحقيقيون هم الأطفال، كم من الخوف يعانون؟ كم من الصدمات يتعرضون؟، كم من الذكريات السيئة يخزنون في ذاكرتهم؟ وفي اللاوعي. وما نوع الشخصية التي ستكون لهؤلاء الأطفال مع كل هذا العنف الذي يمتصونه؟.

أطفال الحي، لا يلعبون بطرق أخرى غير لعبة الحرب؟ أنا نفسي عندي طفولة مليئة بالمعاناة، نتيجة لعدة حروب عشتها، وقررت القراءة والبحث وبعده لغات وكان لسفري إلى مختلف البلدان أن يعلمني التعايش مع الثقافات المختلفة، وكان علي أن أجادل طويلا وكثيرا، وأن أدخل في تجارب مختلفة. وثمة أشياء كثيرة كان علي أن أخسرهما، كي أصل إلى بدايات التسامح.

في كثير من الأحيان لا أعطي أجوبة على أسئلة أطفالي وعمما تقوله الصور المأساوية التي يتم تمريرها على شاشة التلفزيون، وأقول لهم: "سوف أشرح لكم في وقت لاحق". لكن الأحداث على الأرض تضعني في مواقف محرجة مع أطفالي. فأطفال الحي، و المدرسة. يتحدثون عن كل شيء، ويعرفون القصة المأساوية كاملة.

أدونيس، ابني الأكبر (١٠ سنوات) يقول لي؟ "لماذا علي الإعتياد مع الحرب لماذا؟، لماذا لم انولد في بلد آخر دون حرب؟ ولماذا لا يمكن أن نساfer؟ لماذا اسرائيل تغلق الحدود؟ ولماذا يهاجموننا؟ وما السبب في أننا نهاجمهم.. ولماذا... ولماذا، ولماذا؟

نديم، طفلي الأصغر (٤ سنوات)، يفهم ما كان يتحدث به أدونيس، ويضع يده اليمنى قرب رأسه. ويبدأ بتريد النشيد الوطني الفلسطيني، بلغته الطفولية غير المكتملة بعد.. اما ليندا فإنها تصر على حفلتها.

المدينة مغلقة، والشوارع فارغة، مشهد محزن للغاية ويعطي الشعور بالمهانة. مولد كهرباء العمارة يعمل بنظام متكشف "حربي". ثمة صور تلفزيونية لضحايا القصف في مختلف أنحاء قطاع غزة،

الغالبية العظمى من الأطفال تحت الأنقاض، والبعض متفحمين، وآخرين تناثرت اجسادهم الى قطع وأشلاء. لا أريد لأطفالي رؤية هذا. فأغبر القناة، لأن الدرا ما الكبرى كانت عندما ذكرو أسماء الضحايا، احدهن هي صديقة ليندا، وكان اسمها على قائمة المدعوين لعيد الميلاد. زوجتي تمكنت من إعداد كعكة ،فلقد كان لدينا بعض المكونات في البيت. مع شمعة واحدة مخصصة للانارة.

ليندا غيرت تعاليم وجهها عندما رأتها، وبدأت تبتسم. الأطفال لديهم معجزة النسيان...فأن يكونوا سعداء فتلك غايتهم التي يبحثون عنها وحتى لو كانت جزئية ومؤقتة فإنها تجعلهم ينسون كل المعاناة.

وأخيرا حان وقت الاحتفال مع خمسة أشخاص، (نحن العائلة..) وفي وقت التصوير، انفجر صاروخ بالقرب من المبنى. (في الصورة يبدو طفلي الأصغر وهو خائف جدا). وبدلا من غناء عيد ميلاد سعيد لك يا ليندا، بدأنا بغناء أغنية تيمون وبومبا stand by me المعروفة والمحبوبة لأطفالي ، في عدة حروب ومنذ عدة سنوات، تعلمت أن ألعب دور المهرج لأولادي، فعندما يثور انفجار، ويصابون بالهلع، ويقفزون من أماكنهم بوجوه شاحبة، وعيون بلا دموع، وأفواه مفتوحة دون صراخ، وبعيون مليئة بالحسرة، ينظرون الى وجهي وكأنهم يقولون: "بابا افعل شيئا لأجلنا " أنا نفسي لا أعرف ما يجب القيام به، وأنا نفسي لست بطلا، وكشخص أنا خائف أيضا، لكن علي تغيير المسألة إلى ملهاة والبدء بالتهريج، كي احافظ على صورة الأب أمام أبنائي، لأول مرة في اول حرب خرجت معي اغنية stand by me ، لأنها تبدأ ب " دوم دوم دوم... dom..dom..dom" وهم يرددونها بأصوات عالية وصاخبة وساخرة..وبالتالي كانت بمثابة العلاج النفسي للأطفال لإخراج الغضب من دواخلهم. ولم نغني happy birthday to you ، ولم نضع موسيقى الفلامنكو، أو شاكير،انما كانت اغنية... تيمون وبومبا " قف الى جانبي stand by me "...

ليندا أتمت ثمانية سنوات من عمرها، فترة زمنية عانت فيها من عملية الرصاص المصوب و كارثة عام ٢٠١٢ وجميع المعارك من ٢٠٠٦ حتى اليوم. كم حرب اخرى ستعيشها ليندا إذا لم ينته هذا الصراع المزمّن لأكثر من ستين عاما؟

ليندا تصر:عندما يتوقف القصف وينتهي كل شيء فإنها ستقيم حفلة عيد ميلادها كما تخيلتها وكماخطت لها. وأنا أقول لنفسي: " ان نجونا "

٢٠١٤ غزة